د. عبد الرحمن صالح العشماوي

ديوان

# بائعة الريحان



مكتبة العبيكان

د. عبد الرحمن بن صالح العشماوي

# بائعة الريحان

شعر

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العشماوي، عبدالرحمن

بائعة الريحان ـ ط٣ ـ الرياض

٦٩ص؛ ١٤×٢١ سم

ردمك: ٨ ـ ١١٣ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠

١ - الشعر العربي ـ السعودية أ ـ العنوان

ديوي ٨١١,٩٥٣١ ٢٢/٤٨٢٣

ردمك: ٨ ـ ١١٣ ـ ٤٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٢/٤٨٢٣

**الطبعة الثالثة**

**١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م**



الناشر

مكتبة العبيكان

**الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة**

**ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥**

**هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩**


بسم الله الرحمن الرحيم

# الإهداء

إلى الذين عاشوا

هدوءَ القرية وسكونها

قبل أن يعيشوا

صخبَ المدينة وضجيجها

# كلمة..

دائماً ـــ عندما يشيع في نفسي ألمٌ خفيٌ ـــ أبحث عن سببٍ له، وكثيراً ما أعجز عن معرفة ذلك السبب.

إلا أنني أحياناً، أربط بين ألم نفسي، وبين حنيني إلى طفولتي الهادئة العذبة في قرية "عراء" التي يحتضنها جبلٌ من جبال بني ظبيان.. وذلك الحنين هو السبب ـــ أحياناً ـــ فيما أحس به من ألم.

أما الأسباب الأخرى فإنها تجيد الاختفاء بين مسارب النفس .. وفي أعماق القلب.

# مجالس الأمطار

« في منطقة الباحة يعقد الغيم كل يوم مجالس الأمطار»

حـــدثيني عن رحلة الأقـــمـــار

وعن الليل يحـــتـــفي بالنهـــار

حـــدثيني عن الجـــبـــال، ذراها

تمنح الغـــيم نظرة اســـتكبـــارِ

حـــدثيني عن التـــلال، عليـــهـــا

طيلســـــان من أجـــمل الأزهارِ

لم تجـــبني وأغـــفلت كل حـــرف

في ســـؤالي، ولم تراعِ انتظاري

ورأت عـــثـرتي على درب صـــمـــتي

فـــمـــضت دون أن تقـــيل عـــثـــاري

وأشـــارت بكفـــهـــا، فـــإذا بي

لا أرى غـيـر واحــة واخـضـــرارِ

هـاهنا يا فـؤاد مـســقَط رأسـي

أتُـرانـي نـســـــيت أهـلـي وداري

هذه « البــاحــة» التي علمـــتني

كـيف أهدي لحني إلى قـيــثـاري

كـــيف أبني على روابي حنيني

قـــمـــاً من روائع الأشـــعـــارِ

كـــيف أشــدو لأمـــتي وأناجي

ذكــرياتي وأحــتــسي أخــبــاري

كـيف أبكي قـدسي وأبني لقـومي

أمـــلاً بالجـــهـــاد والإصــــرار

هذه البـــاحـــة التي ألبـــســـتني

من ثيـــاب الوفـــاء خـــيـــر إزارِ

أسمعتني صوت الندى وهو يفضي

بخــفــايا الندى إلى الأشـــجـــار

حــاصــرتني بحــسنهــا، فــفــؤادي

يتــغنى بحــسن هذا الحــصــارِ

في رباها كــحّلت بالحــسن عــيني

وعلى أفــقــهــا رســمت مــداري

في رباهــا عــرفت مــعنى يقــيني

وولائي للواحـــد القـــهـــارِ

في رباهــا قــرأت قــصـــة «قُطْزٍ»

وهـو يهــفـو شــوقــاً إلى «جلّنارِ»

عند زيتــونهــا ترعــرع شــعــري

ونمت همــتي وعــزَّ اصطبــاري

علمــتني جـبــالهــا كـيف أبقى

صــاعــداً في مــراتب الأخــيــارِ

علمــتني صــخــورها كـيف أبقى

صــامــداً رغم قــوة التــيَّــار

علمــتني غــيــومــهــا كـيف أبني

فـوق أرض العطاء صـرح فـخـاري

علمــتني أشـجــارها كـيف أرمي

في أكف الحــســاد حلو الثــمــارِ

في ربا غـــامـــدٍ وفـي زهرانٍ

يعــرف الطلُّ قـيــمــة الأســحــارِ

يعـرف الغـيم كـيف يعـقـد فـيـهـا

كلَّ يـوم مـــــجـــــالس الأمـطـارِ

يعـرف الفـجـر كـيف يرسُم فـيـهـا

لـوحـــــة لا تـطـيـق أســــر الإطارِ

يعـرف البـدر كـيف يسكب فـيـهـا

نـوره فـي مـــجـــالس الـســمّـــارِ

يـا ربـوع الـزيتـــــون واللوز يـعـطـي

فـي ســــخــــاء، يا واحــــة الـزوَّارِ

مـــذ رحلنا، ونـحـن نـســعـى ولكن

مـــا بلغنا نـهـــاية « المشـــوارِ»

أنـا فـي هـذه الـروابـي مـــقـــيـم

بفـؤادي مــهــمــا يشطُّ مــزاري

# يا رُبا الباحة

يا رضا المحبوبِ مزّقْ غضَبهْ

فلقد يُعتِقُ هذي الرقَبَهْ

ولقد يرسمُ في عيني رؤىً

ويريني شمسَهُ المُحْتَجِبه

يا رُبا الباحةِ، أجفانُ الهوى

ناعساتٌ تتحاشى الجَلَبَهْ

ويدي يخضرُّ فيها قلمي

وحروفي لم تزل مُغْتَربهْ

تِعبَ المشتاقُ من أشواقِهِ

فمتى يمحو التلاقي تَعَبَهْ

* الباحة من المناطق السياحية الرائعة في جنوب المملكة العربية السعودية ـ وما بين القوسين في القصيدة أسماء أماكن وجبال في منطقة الباحة.

يا رُبا البــاحــةِ، قلبي خــافقٌ

خــفــقــاناً لستُ أدري سَــبَــبَــهْ

أســألُ الوديانَ عن تاريخِــهــا

وجــبــالاً فــوقــهــا مُنْتــصــبــهْ

فَـيُـريني الحسنُ فـيـهـا نفسَـهُ

ويريني الشــعــرُ فــيــهــا طَرَبهْ

ألمحُ « الطَّفَّــةَ» يسـقـيـهـا الهـوى

فــتناجي بهــواها «شَــهَــبَــهْ»

وأرى «حُــــــزْنَـةَ» يُلقـي نَـظْـرةً

والروابي حــولَهُ مُنْتَــقــبــهْ

و« شَــدَا» ينصبُ من قــامــتــهِ

مَــعْلَمــاً ترنو إليــه العَــقَــبَــهْ

وأرى «دَوْسـاً» على جـبـهـتـهـا

كـتَبَ التـاريخُ مـا قـد كـتـبـهْ

يا رُبا البـاحـةِ مـا زال الصِّـبـا

فـيك غـضّـاً فـأجـيـبي طلبـهْ

وأعــيــدي للفــتى أيَّامـــهُ

في «حمى ظَبيـانَ» أو في الشُّطُبَهْ»

يوم كـــانت قـــريتي هادئة

يعـرف الحـسن لديهـا نَسَـبَـهْ

ليلُهـا المقـمـرُ، مـا أجْـمَلَه

ناثرًا في كل صـوبٍ شُـهُـبَـهْ

يا رُبا البـاحـةِ مـا زال لنا

فـيكِ شـوقٌ، مـا بَلَغْنَا أَرَبَهْ

فــرَّقَ التّــرحــالُ فــيــمــا بيننا

فــاللّقــاءاتُ بــه مُــقَــتــضَــبــهْ

مُــــذْ رَحلنا، والمنى ضـــاحكة

ومــغــانــي شــوقنا مُنْتَــحِــبــهْ

غـــيـــر أنَّ الحبَّ مـــا زال لنا

نســـتـــقـي منهُ ونرقى رُتَبَـــهْ

قــد وهبناكِ وفــاءً صـــادقـــاً

هل يعــودُ الحُــرُّ فــيــمــا وَهَبَــهْ؟؟

يا رُبا البــاحــة كم من شــاعــر

شَــفَــةُ الشــعــر به منقلبــهْ

يا رُبا البــاحــة كم من فــارسٍ

لا يســـاوي سَـــرجَ متنٍ رَكَــبَــهْ

كم نفــوس غــرقتْ في لَهــوِها

فَـغَـدَتْ في دَرْبِهــا مُــضطَرِبهْ

يصــبحُ المرءُ ذليــلاً حــينمــا

يهــجــرُ الدين وينسى أَدَبهْ

حَــــسَبُ المؤمن دين وتقى

فَلْيُــراجِعْ كُلُّ باغٍ حَــسَــبَــهْ



# الباحة اليوم لحن[1]

صوتي لصوتك يا قلبي الحنونَ صدى

فاهتفْ بلحن الرضى واجعل أساكَ فدى

أنخْ هنا ركبك الساري، فأنتَ على

أرض ستُنْبِتُ أزهار الهناء غدا

أسمعْ رُبَا غامدٍ لحناً، تردّدهُ

زهرانُ، فالدربُ صار اليوم متّحدا

إنّي حفرتُ روابي الشعر، أزرعُها

حباً، وصدقاً وللإنسانِ ما قصدا

يا فَهْدُ.. ها أنتَ والأزهارُ راقصة

من حولنا تزدهي حباً لمن وفدا

(١) أُلقيت في الحفل الذي أُقيم في مقر الإمارة بالباحة حينما زارها الملك فهد عندما كان ولياً للعهد.

البـاحـةُ ـ اليوم ـ لحن سـوف أُنْشِـدُهُ

شــعــرًا، وتُنشِــده هـذي الرُّبَـا أبداً

أرضـيـتـهـا بلقـاء، سـوف يحـفـظُهُ

تاريخـهـا زمناً، لا يعـرف العـددا

سـمـعتُ أزهارها تحكي، وقـد حلفتْ

بالله صــدقـاً، إذا أحــسـنـتم المدَدَا

لتـصـبـحنّ مـثـال الحـسـن في بلد

لكم مـــحـــاسنُه.. أنْعِمْ به بلدا

وعـــدتُ قلبي بحلْم كنتُ أرقـبــه

إنّ الفـتى مَنْ يَفي دومـاً بما وعـدا

وها أنا اليومَ، ألقـي الشعرَ تسمعني

ربوعُـهـا، وأرى في ربعـهـا فَـهَـدَا

شـعـراً يعـيش على أنغـامـه أملي

ويقـتل اللحنُ فيـه الحـزنَ والكَمَـدا

يشـدو به «حُـزْنَةُ» العـالـي، وينقله

لحناً شجياً إلى كل الربوع «شـدا»[(١)]

أفنيتُ فيهـا شبابَ الحـرف أنظمـه

وصـفًـا لهـا، كلمـا قـرّبتُـه ابـتـعـدا

يابلبلَ النغم العـذب الذي غَـرَستْ

ألحَـانُهُ عَـبْـرَ هـاتيكَ الـرّبوع صـدا

إنْ كنتَ تشدو على أغصانها فعلى

غصـونِ قلبيَ عصـفورُ الهنـاء شـدا

يا شعرُ غرّد على أيْكِ المشاعر في

صدق فقد يُؤْنِسُ التغريدُ مَنْ وجدا

(١) (حزنة) و (شدا) جبلان معروفان بالمنطقة.

هذا اللقـاء الذي نحـيـاه، ينقلني

إلى زمـان، أضـاء المشـرقين هدى

رأيتُ فـيـه رسـولَ الله، يملؤهُ

عـدلاً، وكـان لمن يحـتـاجـه سندا

وقـد رأيتُ به الصـدِّيقَ ممتـثـلاً

كـمـا رأيتُ به الفـاروق مـتّـقـدا

ولم تـزل تسـمع الأيام صـرخـتَـهُ

ويَشـربُ الدهر منهـا عـزّة وفـدى

قـد قـالهـا عمـر الفـاروقُ في ثقـة

بالله، يَمْـهَـرُها الأمـوالَ والولدا

فلو تعـثّـر في صنعـاءَ راحلة

براكب، كنتُ مـسـؤولاً ومُنْتَـقَـدا

مَنْ حقّق النصر في بدر ومَنْ جعل الـ

أحزابَ، بالرغم من إحكامها، بدَدَا؟

ومن طوى الأرض للإسـلام طائعـة

إلا الذي لم يزل في حكمـه أحـدا

إنَّـا نـكـونٌ بـالإســـــلام رابطـة

مهما اختلفنا فقد صرنا بها جسدا

لو اشـتكى كَـدَرا مـاءُ الخليج شكا

منه الفـرات، ولم ينس الأسى بَرَدَى

ليس التـزمّتُ طبـعاً في عـقيـدتنا

ولا التـحلّلُ.. إنّا نبـتـغي رشـدا

وليس مَنْ يمتطي للمـجـد هِمَّـتـهُ

كمن قضى عمره لهوًا فضاع سُدَى

لا يُعْــرَفُ الحــرّ إلا من تعــامُلِهِ

ولا الشـجـاعُ الفـتى إلا إذا صَـمَـدا

قـــد يغـــرق المرءُ فـي لذّاته، ويـرى

دنيـاه نشـوى ويأتي عَـيْـشُـهُ رغـدا

حـــتى إذا مـــا تمادى في غـــوايتـــهِ

تبـــدَّلتْ حـــاله بعـــد الرِّضـــا نكَدا

مهما غفا الناسُ إعراضًا فلن يجدوا

من دون ربهم الرحـــمنِ مُلتـــحَـــدا

في كل ذرّة رمل مـن جــــــزيرتـنـا

معنى من العزّ، بالبشرى يسيل نَدَى

تمّتْ لنا نـعم الرحــــــمنِ في بلد

كالمنهل العـذب، كم مِنْ ظامئ وردا

إليــه تهـفـو قلوبُ المسلمين على
بُعْـدِ المسـافـات، والإسـلام منه بَدَا

دسـتـورنا الحق، لا نرضى به بدلاً
به نسـيـر إلى أهدافنا صُـعُـدا

فـبـالهـدى نجـعل الأيَّامَ ناعـمـةً
تزهو.. وإنْ أحكمتْ أعداؤنا العُقَدا

نمـضـي بـإيمـاننـا، والـلـهُ يكـلـؤنـا
مـا خـابَ مَنْ مَـدّ لله الكريم يَدَا



# بائعة الريحان

بائعة الرّيحانِ

في قريةٍ رابضةٍ

في قمَّةِ الجبلْ

تعيش في أمان

تواجهُ الحياةَ

بابتسامةِ الأملْ

وعندما..

تَبِيْضُ ظُلْمةُ المساء

بَيْضَةَ السَّحرْ

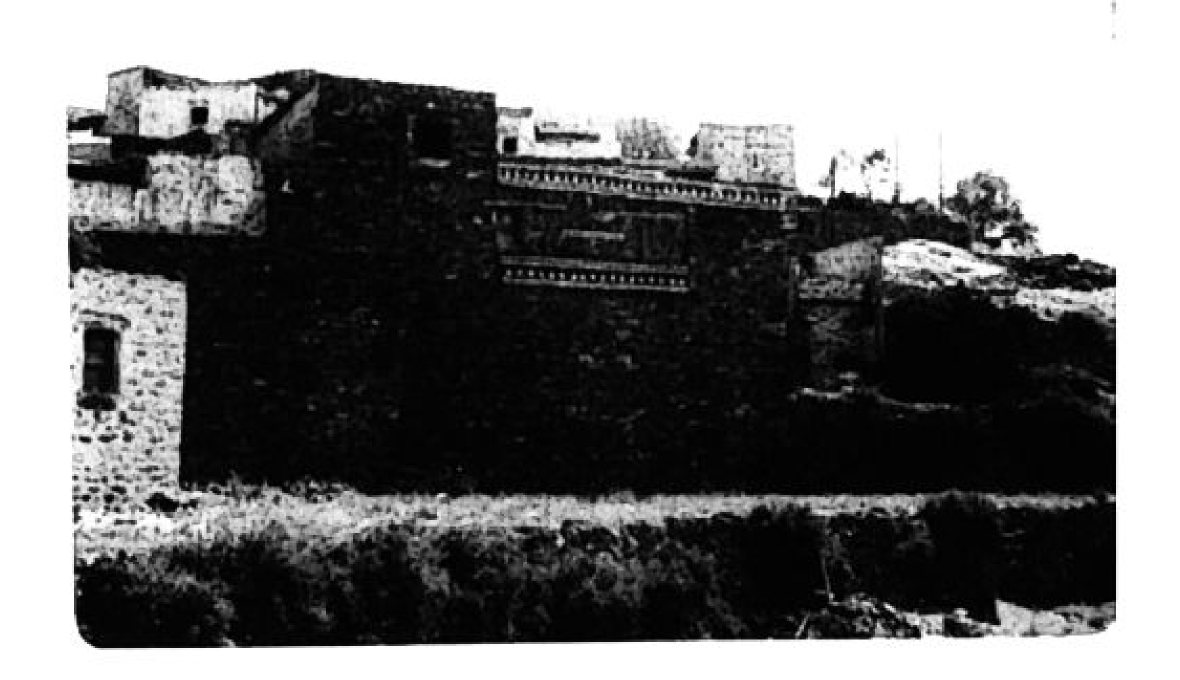
وقَبْلَ أنْ يَفترَّ

مبسمُ الأُفُقْ

عَنْ بسمةِ الصَّباحِ

تكونُ..

قد أناختِ الرِّكابَ



❖ صورة لجزء من القرية الرابضة على قمة الجبل❖

فـي « الغشامرَهْ»

وقريةُ «الغشامرهْ»

مقرُّ سوقِ السَّبْتِ

كلَّ «دَوْرْ»

تبيع فيهِ..

الشِّيْحَ والريحانْ

وربّما..

تبيع «قَرْنَ مَوْزْ»

وربّما قرنينْ

وقبل أنْ يودِّع النَّهارُ

وعند نَزعِهِ الأخيرِ

تكون في منزلها

تُدَقِّقُ الحسابَ

بائعةُ الرَّيحانِ

مَنْ ياتُرى



❖ صورة لقرية « الغشامرة» مقر سوق السبت قديماً

ويلاحظ زحف المباني الحديثة على القرية❖

بائعة الرَّيحانِ؟

امرأةٌ تخمشها

مخالبُ التسعينْ

امرأةٌ عجوزْ

في وجهها المجعَّدِ الجبينْ

إشارةٌ

إلى تعاقُبِ السنينْ

بائعةُ الرَّيحانِ

في وجهها..

تَلبَّدتْ متاعبُ الزمَنْ

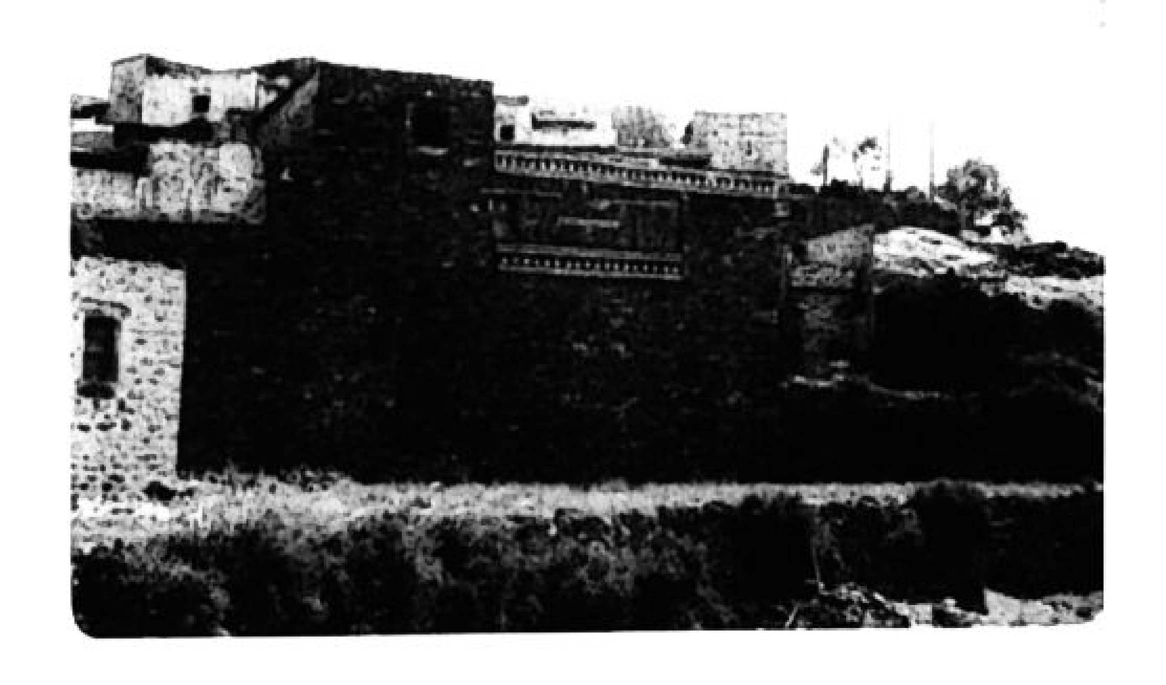
وفي انحناء ظهرِها

حكايةٌ طويلةٌ

من الوهَنْ

بائعة الرَّيحانِ

حكايةٌ قديمةٌ



❖ سورة تبين مداخل المنازل قديماً❖

جديدَةْ

أغنيةٌ ريفيَّةٌ

فريدَهْ

بائعة الرَّيحانِ

راويةٌ

لا تعرفُ المِرَاءْ

لا تعرفُ التَزلُّفَ المَشينَ

والرِّياءْ

تقول ما تشاءُ

وربَّما..

يُلْجِمُها الحياءُ

فتلزَم السكوتْ

وتنتهي

حكايةُ الرَّيحانِ

أوْ تموتْ

بائعة الرَّيحانِ

قَذَفْتُ..

في مسمعها السُّؤالْ

ترنَّح السؤالُ

واستطالْ

وصالَ حَوْلَ سمعها

وجالْ

بائعة الرَّيحانِ

في عينها شرودْ

في سمعها ثِقَلْ

وربَّما راودَها الخجلْ

فأسدلتْ..

مِنْ صمتها حجاباً

لكنني ـ برغم صمتها ـ

قَذَفْتُ بالسُّؤالِ

يَتْبَعُ السؤالْ

فالتفتتْ إليَّ في ذهولْ

وهَمَسَتْ تقولْ:

تريدُ نْ أحكي لكَ الحكايَهْ

فقلتُ ـ في تلهُّفٍ شديدْ

نعم ...

وكيف لا أريدْ؟!

بائعةُ الرَّيحانِ

رمَتْ إليَّ نظرةً طويلَهْ

وأردفتْ بآهةٍ ثقيلَهْ

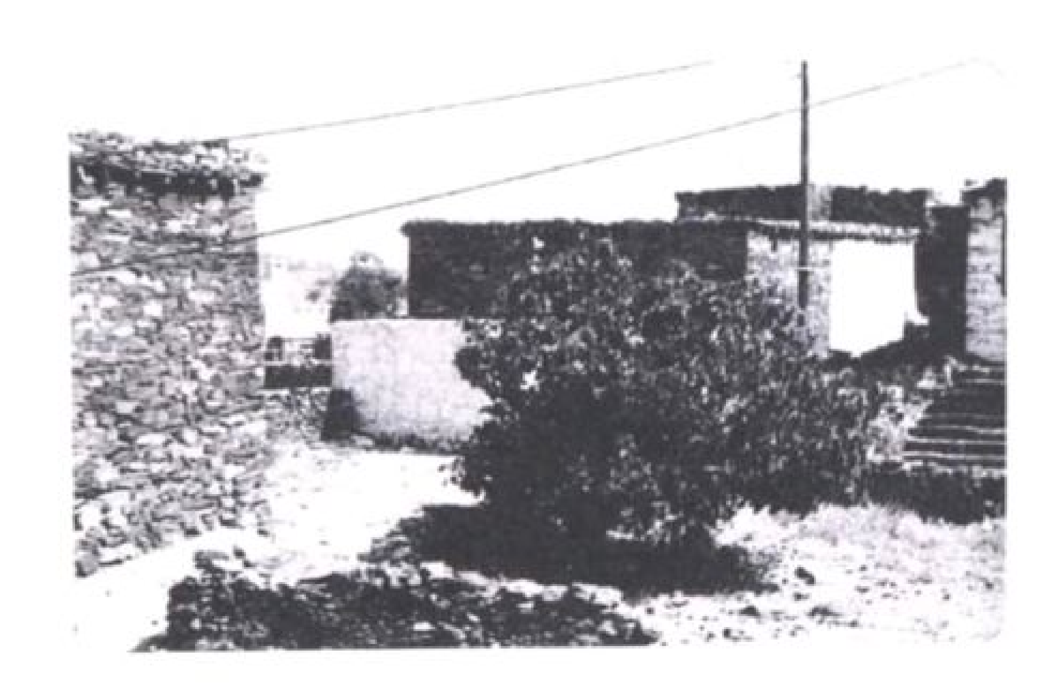
وانطلقتْ تقولُ:

حكايتي حكايهْ

أما ترى بأنني

أصارعُ الهرَمْ؟!

كأنَّني..



❖ جزء من القرية ❖

تساؤلٌ من عصرنا القديم

عن كلِّ ما أراهُ..

من جديدِ

أوْ أنني علامَهْ

تُخْبِرُكم بما مضى

من عيشنا الزهيدِ

حكايتي حكايَهْ..

قد عِشْتُ ـ يا بُنيَّ ـ

عالَمَيْنْ

وُلِدْتُ مرَّتينْ

وربَّما..

أموت مرَّتينْ

ما بين أمسي ـ أيُّها الفتى ـ

وبين حاضري

مسافةٌ بعيدةٌ بعيدَهْ

بدأْتُها وحيدَهْ

وربَّما

أنهيتُها وحيدَهْ

بالأمسِ..

كانت الحياةُ هادِئَهْ

وكانت النفوسُ

هانئَهْ

واليومَ ـ يا بُنيَّ ـ مثلَما ترى

تقاربَ الزَّمَنْ

فالنومُ في وطنْ

وقهوةُ الصَّباحِ

في وطنْ

تقاربَ الزَّمنْ

لكنَّني..

أُحسُّ بالتَّباعُدِ المخيفِ

فِي أَنْفُسِ البشَرْ

ما عاد في القلوبِ

نَبْضُها القديمُ

وحبُّها العظيمُ

تقاربَ الزَّمَنْ

والناس يا بُنيَّ يَلْهثونْ

وربَّما أتاهم اليقينُ

وهم على الطريقِ

يلهثونْ

حكايتي حكايَهْ

في قريتي...

بدأتُ رحلةَ الطفولَهْ

في قريتي..

لعبتُ بالترابِ والحَصَى

رعيتُ..

في طفولتي الغَنَمْ

وفي الصِّبا..

رعيتُ بيتي الصغيرْ

وأيُّ بيتٍ ـ أيُّها الفتى ـ ؟!

ما عرفتْ جدرانُه الدِّهانْ

وأرضُه..

لم تعرفِ المفارشَ الوثيرَهْ

ما كان في منزلنا «كَنَبْ»

ولم يكنْ في غرفتي سرير

وأينَ غرفتي ؟!

كشوكةٍ..

في حَلْقِ بيتنا الصغيرِ

ولم تكنْ

إذا أتى الشتاءُ

تحرمنا من لذَّةِ المطرْ



❖ صورة لبيت القاسم من بعيد ❖

لكنَّ بيتَنا

بالرغم من مظهرِه الحقير

لم يعرفِ الشقاءْ

وربَّما..

لأنه لم يعرفِ الثَّراءْ

حكايتي حكايَهْ

من بيتيَ الصغيرْ

كنت أملكُ الوجود

أحسُّ أن طفلتي «شريفهْ»

تقرِّب البعيدْ

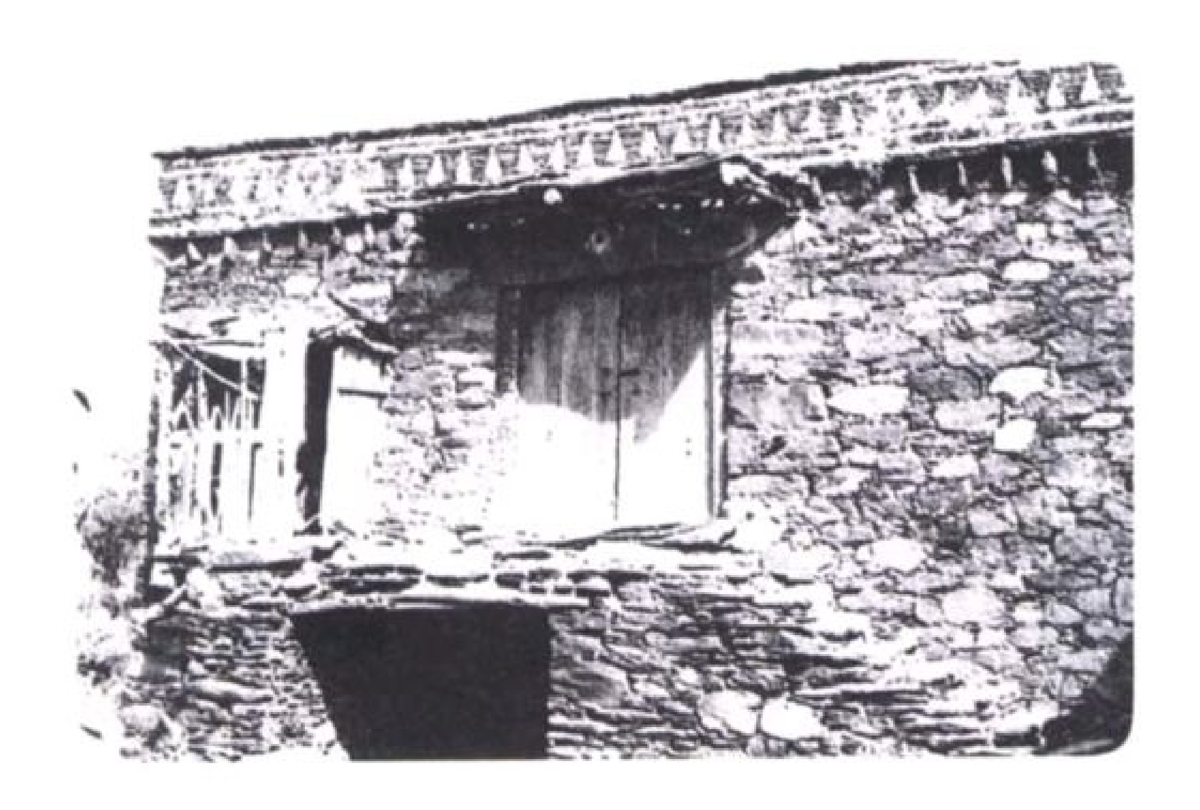
ولا تسلْ عن رجل قصير

يفاجئُ الذي يراهُ

بمظهر حقير

يداهُ ما صافحتا

نعومةَ الحياةِ



❖ صورة لبيت كبير من بيوت القرية وقد زُيِّنت شرفاته بأحجار المرو الأبيض وهو منزل «القاسم» في قرية عراء وكان يسمى في وقته «قصراً» ❖

لكنَّه بطلْ

في وجهِهِ ابتسامةُ الأملْ

منحتُه عنايتيْ

وحبِّيَ الكبيرْ

أغضُّ طرفي إنْ قسا

أو ثار في غضبْ

وربَّما يضربني

لا أعرف السببْ

فألزمُ السكوتَ

وإنَّما السكوتُ من ذهبْ

ما كانَ في قريتنا

«تِلفازْ»

ولم تكنْ تهمُّنا الإذاعهْ

وسكتتْ بائعةُ الرَّيحانِ

ولم يطلْ سكوتُها

بل أردفتْ تقولُ:

دعني أقصُّ هذه الحكايةَ

العجيبَهْ:

في سفرٍ إلى ابنتي

وأيّما سفَرْ؟!

في ذلك الزمانِ

لم تُعبَّدِ الطُّرُقْ

وصلْتُ

ـ بعد رحلةٍ طويلهْ ـ

إلى ابنتي شريفَهْ

دخلتُ بيتَها

رأيتُ في مجلسها العَجَبْ

أَرجلٌ في بيتها غريبُ؟!

هل فُقِدَ الحياءُ

وانتهى الأدبْ؟!

ردَدْتُ فوقَ وجهيَ

الحجابْ

وعَدْتُ نحوها

وصحتُ في غضبْ:

أغيَّرتْ طباعكِ المدينَهْ

وكيف..

تدخلينني على الرجلْ؟

ومن هو الرجلْ؟

وهالَني أنّي رأيتُ زوجَها

يغالبُ الضَّحِكْ

وكدتُ أنْ أَثُورا

لكنَّها تلطَّفتْ وقالت:

هذا هو «التِّلفازُ»

تنهَّدتْ بائعة الريحانِ

وذهبتْ تقولُ:

ما كانَ في قريتنا تلفازُ

ولم نكُن..

نشاهد الفتاةَ ـ يابنيَّ ـ

تكاد تأكلُ الفتى

ما كانَ فيِ النِّساءِ

هذه الوقاحَهْ

يا ضَيْعةَ الحياءْ!

أحسُّ يا بنيَّ

أنَّ سوسةَ الرذيلهْ

ستأكل الفضيلَهْ

وأنَّكم..

في كأسِ هذه الحضارَهْ

ستشربونَ حسرةً

شديدة المرارَهْ

وأنَّكم ..

ـ كما هتفتُ ـ سوف تهتفونْ:

ياضيعةَ الحياءْ!

وعاودتْ بائعة الرَّيحانِ

حديثها الطويلْ

ولملمتْ ثيابَها

وانطلقتْ تقولُ:

في بيتيَ الصغيرِ

صرت أعرف «الصُّدُرْ»

ألستَ تعرفُ «الصُّدر»؟

مزارعٌ لزوجيَ الحبيبِ

في تهامَهْ

كم صافحتْ أرجلُنا

طريقَها الطويلَ

في اليوم مرَّتينْ

ونحن نصعد الجبالْ

وأيّما جبالْ؟!

تناطح السَّحابَ في شموخْ

لا تعرفُ الرضوخْ

في بيتيَ الصغيرِ

ذقتُ لذَّة الحياهْ

وذقْتُ لذَّة الكفاحِ

والتعبْ

ومرَّتِ السِّنونُ

ولا تسلْني..

كيف مرَّتِ السنونُ؟

وأقبل الخريفُ

ولا تسلْني..

كيف أقبل الخريفُ؟

عشيَّةَ الخميسْ

وكانت الشمسُ

تعانق المغيبْ

وكنتُ ..

في انتظار زوجيَ الحبيبْ

وزحفَتْ مواكبُ الظلام نحونَا

ولم يَعُدْ

وابتلع السكونُ قريتي



❖ صورة للبئر التي تجلب النساء منها الماء ❖

ولم يَعُدْ

وطالَ بيْ السَّهَرْ

واستأسد القلقْ

وعربدتْ مخاوفي

وشمَّر الأرقْ

وزوجيَ الحبيبُ

لم يَعُدْ

واشتعلتْ مواقد الظنونْ

والناسُ نائمونْ

وزوجيَ الحبيبُ ... لم يَعُدْ

عشيَّةَ الخميسِ

غامت السماءُ

فرعدُها يُخيفُ

وبرقُها..

يكاد يخطف البصَرْ

وزحفَ المساءُ واستبدَّ

بالتِّلالْ

وعندها خرجتُ..

والضياءُ والظلامُ في عِرَاكْ

وقريتي نائمةٌ

فما بها حِرَاكْ

وربَّما سَمِعْتَ..

لو أصخْتَ سمعك الرَّهيفْ

ما يُشْبِهُ الحفيفْ

تُحْدِثُهُ..

«شراشفُ» النساءْ

وربَّما..

سمعتَ تمتَمهْ

وجُمَلاً منغَّمَهْ

وربَّما سمعتَ

ـ لو أصخْتَ ثانيَهْ ـ

طقطقةَ الحطبْ

كأنَّهُ..

يشكو إليك قَسْوَةَ اللَّهَبْ

وربَّما رأيتَ..

ـ لو أنعمتَ ناظريك ـ

نساءَ قريتي

يَسبِقْنَ ضوء الفجرِ

عند منبع المياهْ

ويالهنَّ من نساءْ

على ظهورهنَّ..

ترقصُ القِرَبْ

وما لهنَّ في المجونِ

من أَرَبْ

خرجتُ..

والسماءُ في وجومْ

والرِّيحُ..

تُزْمِعُ الهجومْ



❖ صورة للقربة ❖

وجسدي..

تهزُّه ارتعاشةٌ غريبَهْ

وخطرتْ خاطرةٌ رهيبهْ

ووقفَ الطريقُ بِيُ

أوْ أنني وقفتُ بِهْ

وجاءني الخَبَرْ

فزوجيَ الحبيبُ

ماتْ

ونالَ من تَماسُكي الدُّوَارْ

وأُسدِلَ السِّتارْ

وبعدَها

بدأتُ رحلة العناءْ

وصرتُ ـ يا بنيَّ مثلَما ترى

بائعة الرَّيحانْ

بائعة الرَّيحانْ



## قـريتـي..

الهـدوء يلفُّ المكانَ من حـولنا والقـرية تتـشبَّث بالجـبل الشامخ ، تتعلَّق بجسده الكبير..

بيـوتها القـديمة تبدو للناظر ساكنةً لا حراكَ بها، وقد أخذ بعضها بنواصي بعض حتى لَيُخيَّلُ للناظر إليها أنَّها قد زادت التصاقاً وامتزاجاً عن ذي قبل، وكأنها تأْنسُ إلى بعضها هربًا من وَحْشةِ المدنيَّة الحديثة.

وإذا أنعمتَ النظر في بيوت القرية العتيقة رأيتَ من أمرها عجباً. بعضُها قائم على قديمه صامداً لم يتزعزع، وبعضها تقوَّستْ جدرانُه كما يتقوَّس ظهر العجوز الذي بلغ من الكبر عتيّا..

أزقَّة القرية توحي للناظر إليها بشيءٍ غريب.. وكأنها سراديبُ تؤدِّي إلى الموت، سبحان الله !! كأنها لم تكنْ ذاتَ يومٍ مأْنوسةً مليئةً بالغادين والرائحين.

أمــا مــزارع القــرية فــإنهــا تنظـر إلى النـاس الـذين يدوسونها بعرباتهم نَظْرَةَ البائس الحزين.

وقـفـتُ أمـام بيتٍ شـامخٍ من بيـوت القــرية القــديمة.. وسـرَّحْت طـرفي في جنبـاتـه.. ودنوتُ منه .. وقـد خُـيِّل إليَّ أنه يتحدَّثُ إليَّ.

كنت أشـعـر أنه ينظر إلى المبـاني الحـديثـة من حـوله نَظْرَةَ سخـريةٍ واستهزاء، ولو كان له لسانٌ لقـال: انظرْ كيف يتنكَّر الإنسان!!

وقفت أمام ذلك البـيت.. أحـجاره المرصـوصة بإتقانٍ عجيب، بابه الخشبيُّ الضخم « المصراع» نوافذه الصغيرة.. بَهْوُهُ المستطيل « الجون» باحته الواسعة.. درجته المتميِّزة المرصـوفة من الحـجارة رصـفاً رائعاً.. كلُّ ذلـك كـان بمثـابة سـجل حـافلٍ أقـرأ فيـه حيـاة قـوم تـركوا الدنيـا، وكـأنَّهم لم يعيشوا فيها لحظةً واحدة.

عهـدي بهـذا البيت الكبيـر «المهجـور» مليـئاً بالرجـال الشـجعـان والنسـاءِ والأطفـال.. باحتـه كـانتْ مليئةً بالأغنام والبقر والجمال..



❖ صورة للمنزل الذي شهد النشأة والطفولة ❖

درجُه الطويل لم يكن يفرغ من صاعدٍ أو هابط.. نوافذه الصغيرة لم تكنْ تخلو من مُطلٍّ يرصد الأزقةَ من خلال شقوقها.. البهْوُ المستطيل «الجَونْ» لم يكن يخلو من الجالسين تُدار بينهم القهوة والشاي، ويذهبون في الحديث مذاهب شتَّى..

بابه الخشبيُّ الضخم « المصراع الكبير» لم يكنْ يخلو من داخل أو خارج.

وكم كنتُ أسعد برؤية « الجمل» وهو يدخل بحمله من خلال ذلك الباب وينوِّخ في باحة الدار.. ونتسابق نحن الأطفال لنعثر على حبةٍ من فاكهةٍ أو تمر.

ليس الوقت الذي أتذكَّره ببعيد.. بيننا وبينه الآن ما يقرب من عشرين عاماً كنتُ حينها في السابعة أو الثامنة من العمر، أو لعلِّي كنتُ بينهما وإلى الثامنة أقرب.

كنت أنظر إلى ذلك البيت الكبير. والذكريات تنثال عليَّ من يمينٍ وشمال ومن كلِّ ناحية، حتى خِلْتُ أني

أغوص منها في بحرٍ عميق، أو أنني أدخل منها في مثل الضباب..

لست أنسى أهل القرية عندما كانوا يجتمعون إذا عنَّ لهم أمر . ومتى كانوا يجتمعون؟!

بعد صلاة المغرب... ولماذا؟

لأنهم كانوا يسرحون إلى أوديتهم مع بزوغ فجر كلِّ يوم جديد.. فمنهم من يذهب إلى مزرعته.. ومنهم من يرعى غنمه ومنهم مَنْ يهبط إلى الأسواق البعيدة يبيع بعض ما لديه من حب أو فاكهةٍ أو خضار.

حركةٌ دائبة .. لا يُوقِفُها إلا دنوُّ الليل ولون الأصيل.

عندها .. ترى طرقات القريةِ تسيل بالرائحين، وتمتزج أصوات الناس بثُغاء الشاءِ ورغاء الجمال وزقزقة العصافير رائحةً إلى أوكارها.

كان التعاون شعار أهل القرية فيما يقومون به من أعمال .. الحرث .. الحصاد.. بناء المزارع والبيوت.. وإنَّ

من أقــربِ مــا يشــدُّني إلى ذكـره الآن « الطِّينة» ومــا هـي «الطِّينَة»؟

إنها تعني تسقيف البيت بالخشب ورصف الطين عليه .. وأيُّ خشبٍ يا ترى؟.. إنه خشب العرعر والطلح، واللَّوز، والزيتون البرِّي وكم كنا نسعد نحن الأطفال بيوم « الطينة» هذا.. ذلك، لأنَّنا كنا نشارك فيه الكبار في العمل.. وليس أحسن عند الطفل من اللَّعب بالطين..

سبحان الله !! ربما كان السبب في ذلك شعورًا داخلياً عند الإنسانِ بأصله، وميلاً فطرياً منه إلى ذلك الأصل.

كانت الأيدي العاملة في القرية محلّية.. الذين يبنون هم رجــال القــرية .. والذين يصنعـون الأبوابَ والنوافـذ وخشب السقوف و «المرازح» الأعمدة .. هم أهل القرية .

أمـا طلاء الأبواب بالقطران المسـتـخلَص من شـجـرٍ محلّي، وأمَّا طلاءُ الجدران من الداخل بالطين والتبن. وأمَّا تلوين الجـزء الأسـفل من الجـدران بالبـرسـيم الذي يُدَقُّ

ويُعجَن ويُصنَعُ منه مثل الدهان الأخضر، أما هذه الأعمال فإنَّ النساء هنَّ اللاتي كنَّ يَقُمْنَ بها.

نساء القرية لم يكنَّ عاطلاتٍ أبدًا . عمل المنزل.. الحياكة.. حَلْب الأبقار.. العمل في المزارع.. جَلْب الماء من الآبار على ظهورهنّ، كلُّ ذلك كنَّ يَقُمْنَ به خيرَ قيام.

كانت القرية مهرجاناً حافلاً بالعاملين والعاملات.. كلٌّ في مجاله المعهود.

وفي خضمِّ هذه الذكريات عاودتُ النظر إلى ذلك البيت الكبير فأحسستُ وكأنَّه يتحرَّك نحوي أوْ أنَّ الأرض تزحف بي نحوه .

وشعرت كأنَّ لساناً قد امتدَّ له ..

فأخذ يحدِّثني عن إحساسهِ بما هو فيه .. عن وحشته بعد الأنس.. وعن هوانه بعد العزّ وعن هجر الأحبَّة له بعد الوصال.

لقد تمادى بي هذا الشعور حتى غدا في نفسي حقيقةً وما هو بحقيقة.. وواقعاً وما هو بواقع، وحتى أصختُ سمعي إلى ذلك البيتِ القديم أستزيده من الحديث..

ولو استطعتُ أنْ أجعل من الصمتِ زجاجةً مغلقة لوضعتُ كلَّ ضجّةٍ تُحْدثُها الوسائل الحديثة من حولي في تلك الزجاجة وأقفلتُ عليها حتى يتسنَّى لي أنْ أستمع إلى حديثِ الجماد في تلك اللحظة الرائعة..

أيتحدَّث الجماد؟! ربما .. إنَّ حديثَه لَشجيٌّ حزين .. يُشبه حَمْحَمَةَ الفَرَس الذي فقد فارسَه، وحنينَ الناقة التي فقدتْ فصيلَها، ولعلَّ حديث الجماد أشجى وأكثر إفصاحاً. إنه يتحدَّثُ بصمت وهل هنالك أفضل من حديث الصمت؟؟

بيُوت قريتنا القديمة تُجيد هذا النوع من الحديث الصامِت أو الصمتِ المتحدِّث.. تُجيد هذا النوع من الحزن المعبِّر، أو التعبير المحزن.

أرأيت إلى الكتاب الرائع عندما تتغمس بين سطوره فتشعر بزَمْزَمةِ الحروف، وهَمْهَمَةِ الكلمات، وتظلُّ تُوغِلُ في ذلك الشعور حتَّى يُخَيَّلَ إليكَ أنَّ هذا الكتاب يحدِّثك بلسان عربي مبين.

إنْ كنتَ ممّن يذوب في الكتابِ هذا الذَّوبان.. فقفْ على بيوتٍ عتيقةٍ في قريةٍ من القرى واستمع إلى حديثها فستجد أنَّ لكلِّ حجرٍ فيها لساناً ينطق.

عفوًا ـ أيُّها القارئ الكريم ـ فقد رحلت بك بعيدًا بعيداً، وحملتُك إلى عالمٍ ربما أنك لا تجد فيه ما وجدتُ أنا من المتعةِ واللذَّة.

بأيِّ شيء أعتذر إليك؟ لا أدري ولكنْ.. لعلَّك لو جلستَ إلى نفسك تغرق من ماضيها في مثل ما غرقتُ فيه.. لوجدتَ من ذلك الماضي ما يجعلكَ لي عاذرًا.. وعليَّ مشفقاً رحيماً.



# الفهرس